OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

مساهمة الشاعرات الأندلسيات في الشعر العربي (دراسة وصفية)

Contribution of Andalusian poets to Arab Islamic poetry (descriptive study)

۞ شهامد علي طاهر

باحث بمرحلة الدكتوراه، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، بهاولبور

۞۞ د.حافظ أحمد علي

الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، بهاولبور

ABSTRACT

Andalusian women have made profound contributions in many areas from literature, science, art, and the upbringing of boys and girls to matters of homes and beyond and embrace all branches of knowledge. They have a distinct and distinctive role in the flourishing of culture, literature and the development of society since they were not the way to them in the land of Andalusia and as a result of that. They found from the history of Andalusia high places and high ranks preserved by the memory of days, and we have more fortune than literature and science, and a greater number of them are desired in poetry and prose more than others and in poetry in particular until we realize a share of it that was not perceived by its sisters in the East, and its appearance behind them Poetic and literary are two main reasons. The first is the Andalusian environment, which consists of different segments of different origins, races, moods and cultures. We spared in this article the role of women in Spain.

Keywords: *Andalusian women, Andalusian literature, distinctive role, poetry, prose, East,*

المدخل:

النساء الأندلسيات كن أسهمن مساهمات عميقة في عدّة مجالات من الأدب والعلم و الفن وتربية الأولاد والبنات إلى أمور البيوت وخارجها، وأحطن بجميع فروع المعرفة، فلهن دور مميز ملموس في إزدهار الثقافة والأدب وتطوّر المجتمع نظراً إلى أنه لم يكن الطريق لهن بأرض الأندلس شائكاً وعراً ولا ضيقاً حرجاً بل كان واضحا قصداً و صراطاً قويماً، و نتيجة على ذلك أنهن تبوأن من تاريخ الأندلس أمكنة سامية ومراتب عليا حفظتها ذاكرة الأيام، ونلن حظّاً أوفر من الأدب والعلوم ونبغ عدد كبير منهن في الشعر والنثر أكثر من سواهما و في الشعر خاصة حتى أدركن نصيبا منه لم تُدركه أخواتها في

الشرق، و كان وراء رقيهن و ظهور مواهبهن الشعرية و الأدبية سببان رئيسان، أولهما: البيئة الأندلسية التي تتكون من شرائح مختلفة الأصول و الأعراق و الأمزجة و الثقافات[1] والسمحة التي وجدت المرأة في منفذاً للتعابير عن عواطفها، كما يؤكده صاحب كتاب "المرأة في حضارة العرب" قائلاً: "على قدر ما تتمتع الشعوب بالحرية يرتفع شأن أفرادها في المجتمع نساءً و رجالاً، و تنطلق مواهبهم، لذلك فإن الأندلسيات، و قد أدركن ما لم يدركه أترابهن في الشرق العربى من الحرية أتيح لهن من جراء ذلك بلوغ مرتبة في الهيئة الاجتماعية لم تعرفها نساء البلاد الأخرى" [2] و ثانيهما: الإزدهار الثقافي و العلمي الذي ساد على مدن الأندلس الكبيرة خاصة و الصغيرة عامة كقرطبة التي كانت مركز العلم و الأدب، و أشبيلية مهد الغناء و الموسيقى و كذلك غرناطة و المرية و رندة و غيرها، فالحضارة الأندلسية صافية خالصة ذات صبغة عربية والعرب كانوا شعراء بالفطرة فاصطبغت المرأة الأندلسية بهذا اللون الثقافي و تحلّت بهذه الحضارة وجنحت نحو العلم والأدب وتوجهت إلى الشعر خاصّة أكثر من كل شئ آخر، كما يكتب أحمد خليل في كتابه بعد أن يذكر مساهمة المرأة ومشاركتها في بناء الأدب و تاثيرها في المجالس الأدبية، فيقول: "ساعد على إزدهار ذلك مباهج الحضارة الراقية التي غلفت جوّ الأندلس بزخرفها" [3]بأجل هذين السببين قد وجدت المرأة في الأندلس منطلقاً عظيماً لمواهبها وحوافز على استكمال شخصيتها.

مساهمة الشاعرات الأندلسيات فى الشعر العربي الإسلامي

كانت مشاركة الأنثى في الشعر قد بدت منذ أيام الفتح والتمعت أسماء عدّة الشهيرات من الشواعر في ذلك الزمن، مثل حسّانة النميرية و عائشة القرطبية وحفصة وحمدة وزينب و غسانية وغيرهن. ولكن ازدادت مساهمتها مع ظهور ملوك الطوائف، ففى زمنهم أخذ الشعر يتسرب إلى دور الحريم في القصور وأخذت بنات الملوك والأمراء والجواري على اختلاف طبقاتهن، يفقهن هذا النوع من الأدب ويحسن نظمه وقرضه[4].

يقول مؤرّخ انكليزي في كتابه

The lavish wealth of harem and chivalric life in Spain in those days went hand in hand with a brilliant period in the intellectual history of Arab woman.[5]

كذلك يذكر عبدالله العفيفي عن عهد ملوك الطوائف وحالة الأدب فيه وبروز المرأة في الشعر فيقول:" وبدأت المرأة الأندلسية في هذا العصر تنكشف و تأخذ فيما أخذ الناس فيه من لهو و نعيم، وجاذبت الرجل فنون المرح وقالت ما لم يكن يقوله غيره من تغزل وتخالع وتفرّق وتواصل، ومناقضة ومماجنة و مناقلة ومداعبة، ولكن الأخلاق بقيت في جملتها مستمسكة في هذا الجيل من النساء" [6]

فاستطاعت المرأة الأندلسية في المراحل المختلفة أن تحظى بالرعاية والاهتمام نحو الأدب وساعدها فيه تنوع العرق الأندلسية وحرية جوّها وانتشار ثقافتها وارتقاء حضارتها، ومع كل ذلك كانت الطبيعة الأندلسية والبخور الراقصة فيها تقارب عواطف المرأة وروح الأنثى، فظهرت مجموعة كبيرة من الشاعرات المجيدات في جميع عصور الأندلس وتحديداً عصر الطوائف، حتى قيل في كثرة عددهن أنه وجد في الأندلس ستون ألفاً من الشواعر، وإن كان مبالغاً لكنه لم يخل شيئاً من الحقيقة إذ لولا كثرة عددهن لما أطلق هذالقول.

فيمكن لنا أن نمعن النظر في الشعر النسوي من مواقع مواطنهن وهي المواطن التي أثرت في لسانهن وشعرهن، وغلبت على أفكارهن وقلوبهن، لذلك ظهر ماظهر منهن كان مختلفاً بعض من بعض لأجل ميزات يتميّزن بها، فلما لاحظنا المدن التي برزت فيها شواعر نابغات ذوات الصيت والسمعة، وجدنا المدن الصغيرة لها حظ أوفر بعدد الشاعرات بالنسبة إلى المدن الكبيرة الأندلسية، كوادي الحجارة وكانت محطّ الشواعر البارعات، ظهرت فيها حفصة الحجارية و أم العلاء بن يوسف، لئن كان بعد من بينهما زمناً، لكن وجدت بينها ميزات تشاركان فيها، منها رقة اللفظ وعذبة الإيقاع مع شيء من الزينة غير الملموسة والصنعة غير المفسدة ولهما مساهمات في الغزل مع رقة وحشمة.

كذلك إذا قصدنا إلى مرية، وجدنا هناك ثلاث أو أربع شاعرات في زمن واحد أي في القرن الخامس، و كن الغسانية، و زينب المرية و غاية المنى وأم الكرم، استخدمن كلهن في الشعر بديع المعانى دون الألفاظ أو صناعة الأساليب، إلا أنهن قد اختلفن بعضهن من بعض في جرأة البيان و صراحة القول كالشاعرة الغسانية التي تنشد الغزل أعفه وأرقه ولها أسلوب عذب جميل، و أمّا زينب المرية فهي كانت أكثر جرأة من الغسانية فتغزل كالرجال الشعراء في الشكوى و الألم لكنها تحجب إسم حبيبها، و بينما كانت الأميرة أم الكرم أكثر جرأة من صاحبتيه المذكورتين فتغزل بالصراحة و تجاهر فيه إسم صاحبها و لم تحذو آثار المدرسة العذرية التي تقفوها الشاعرات المشرقيات.

بعد ذلك لما توجهنا إلى المدينة الكبيرة أي أشبيلية، وجدنا فيها عند شاعراتها ميزات خاصه، منها امتثال في العفة والحياء والوقار والكبرياء، و كن جميعاً من مدرسة العفة والترفع، و من هذه الشاعرات الشهيرات مريم بنت أبي يعقوب التي تنظم الشعر بالسليقة إما في مدح الملوك أو في بيان تجربتها من عمرها الطويل و لاتوجد عندها صناعة ولا تكلف،كذلك الأمر في بثينة بنت المعتمد التي تحذو حذوة المدرسة العذرية فيوجد في كلامها لون العفة والحياء فتقرض الشعر كمريم استجابة لموهبتها الحقيقية وبديهة صافية ثم في القرن السادس نرى في أشبيلية أسماء العامرية وهي اقتفت آثار صاحبتيها في العفة والحياء.

كانت مدينة غرناطة التي توصف بعروس المدن وقاعدة بلاد الأندلس برزت من أرضها الخضراء و اغترفت من نهرها الشهير المسمىّ بـ"شنيل" عدد من الشواعر البارعات ومنهن أربع مرموقات عظيمات، هن حمدونة وأختها زينب وترهون وحفصة. وكلهن اشتهرن بوصف الطبيعة و خاصة حمدة أو حمدونة التي تحسن في الوصف للطبيعة بشعرها الجيد فنرى في كلامها تذكرة الجمال و وصف الخضرة والأشجار والجداول والنهار والطيور المغردة وظلال ونسائم الأصباح و أنديتها الشفافة، وكل ذلك بتأثير الجمال لمدينة غرناطة التي كانت أشبه شيء بدمشق، فيقول عبدالله العفيفي عن هؤلاء الشواعر في كتابه:" وكان نساء غرناطة أعرف بالشعر و معانيه وصوغه وصقله من غيرهن وقد ذكر صاحب نفع الطيب أنهن كن يُدعين العربيات لسيرهن على سنن العرب في صفاء الشعر و فصاحة المعانى، فبدل أن يقال هذه غرناطية كان يقال هي عربية".[7]

أما مدينة قرطبة فإنها كانت عاصمة الأندلس الإسلامية و من مدنها الكبيرة لكنها فقيرة من حيث عدد الشاعرات، إلا أن إحداهن التي تعدّ شاعرة قرطبة بل شاعرة الأندلس أي ولادة بنت المستكفى كانت أعلا الشواعر الأندلسيات رتبة وأسماهن في الأدب والشعر مكانة وكانت رقيقة في شعر الغزل و فاحشة في الهجاء والسخرية و لم تكن ولاّدة شاعرة وحيدة من قرطبة بل كانت بها شواعر أخريات كعائشة القرطبية ومهجة، وأم الهناء اللاتي تركن أدوية عليا في سمع الشعر العربي الأندلسي وكان شعرهن حياً وعفّاً ونظيفاً و رقيقاً و عميقاً ومنبعثاً من القلوب بالصدق.[8] كذلك تكتب الدكتور سلمى سليمان عن شاعرات غرناطة و قرطبة فتقول:" فشواعر قرطبة وغرناطة لم يختلفن عن شواعر بغداد و أن

ابتعدن عنهن جغرافياً إلا أنهن ارتبطن بهن في مشاعرهن فانعكس ذلك على شعرهن، فكان نتاجهن الأدبي منسوجاً على منوالهن في الأغراض التقليدية كما منحن ألقابهن وحصلن عليها".[9]

وبعد ذلك لو ألقينا النظر الفاحص في الشواعر الأندلسيات من جانب القرون والأزمنة، لوجدنا أثارها البيئة والواضحة في نتاجهن وكلامهن، وكن في أوائل القرون بعد الفتح الإسلامي أقرب إلى العروبة والحشمة مع ترددهن في جرأة البيان و ابتعادهن عن الإفحاش، و في أواخر القرون و أوسطها كن تحرزن من ربقات التقليد وأسباب التحرز في القول، فجئن بمعان فاحشة و أساليب ضريحة و جرئية لا تقاس بها من امرأة مشرقية.

نرى في أوائل القرون بعد الفتح شاعرتين بارزتين أولّهما العجفاء من الجوارى و ثانيهما حسّانة التميمية من الحرائر وقد التزمتا جانب المحافظة على التقليد في قرض الشعر و نظمه من معانٍ وصياغة. ثم في القرنين الثالث والرابع ظهرت عدة من الشواعر الشهيرات مثل قمر، عائشة، حفصة بنت حمدون و كن من الشواعر اللاتي أقلبن بطيئات السير إلى الانطلاق والتحرر و لم يتجردن من التقليد والمحافظة مطلقاً، و لما جاء القرن الخامس، ترقت الحضارة الإسلامية بالأندلس مع كل أسبابها ومقوماتها و كثر عدد الشاعرات مع الشعراء والأدباء وبرزت شواعر نابغات في مدن الأندلس المختلفة جددن فنونهن وقمن لهن ندوات وضواحي كأميرة الشاعرات الأندلسيات التي ولدت في هذا القرن وهي ولادة بنت المستكفى من مدينة قرطبة و مثل ولادة ارتفعت في هذ القرن شواعر أخرى إلى سماء الشعر الأندلسي كحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب وأختها زينب، ومريم بنت أبي يعقوب وبثينة ونزهون وغيرهن و أمّا في القرن السادس و في القرون بعده نجد شاعرات عديدة من الشهيرات بكلامهن الطريف وأشعارهن النادرة، فمنهن حفصة بنت الحاج المعروف بحفصة الركونية و أسماء والشلبية و أمّ الهناء وغيرها.[10]

فبالا ختصار يمكن لنا أن نقول أن مجلس الشعر و رحابه قد تفسّح للمرأة الأندلسية في كل عصر و مصر و قد أسهمت فيه حظّا وافرا في أكثر أصناف الشعر.

و قد شارك في إثراء الأدب النسوي الأندلسي كل من الحرائر و الجوارى، فلابد لنا أن نسرح النظر في دور الجوارى وإثرائهن الأدب والشعر بالأندلس إلى جانب الشواعر الحرائر أيضا. قد اطلعنا بعد تتبّع الدراسة الأندلسية أن أثر النسوة اللائى لمعت أسماؤهن كنّ من الجواري الحسان، ولمسنا مدى شغف الملوك و الوزراء و الشعراء بهن و تمتّعهم بأشعارهن و كانت هؤلاء الجوارى، تُقاسُ قيمتهن بقدر

جمالهن و حسن صوتهن و اهتمامهن وقولهن للشعر و معرفتهن بالثقافة، لذا يُسرف أصحاب هؤلاء الجواري في تعليمهن حتى يصبحن شاعرات بارعات أو مغنيات مجيدات يلتفت إليهن الأنظارُ بإعجاب و احترام.

فمن أوائل القرون من الفتح إلى الإمارة ثم الأموية نرى شاعرات كثيرة من طبقة الجواري الوافدات من الشرق حاملات رأيات الأدب والفنون و رواية الأشعار و الأخبار، و العزف والغناء و كن أبعد أثراً في الشعر الأندلسي و الحكام كانوا يحرصون على استيراد هن في بلادهم و على املاء قصورهم بهؤلاء الإماء و الجوارى كما يُروى عن عبدالرحمن الناصر الأموي:"كان يسرّه أن يتمتع بسماع منظومات جاريته وأمينة سرّه مزنة وأغانيه العذبة الرقيقة".[11]

كذا الأمر في ابنه الحكم الذي كان شغوفاً ومحبّاً بمجالسة الجواري و القينات و أشهر منهن كانت راضية تعرف بالكوكب الزاهى، وغيرها خديجة ومريم وفاطمة وغيرهن فكان قصره مليئا بالجواري اللاتي جمعن بين الشعر والنثر مع رقة الجمال وعذبة الأصوات، هكذا كان ابنه عبدالرحمن الثالث يعني بالجواري و المغنيات.

لذلك ازداد عددهن بالأندلس شيئا فشيئاً حتى ابتنيت لهن دار تعرف بدار المدينات".[12] واشتهرت بين هؤلاء الجواري قمر و فضل، و علم، و قلم، و العجفاء، و العبادية، و أنس القلوب و العروضية وغيرهن كثيرات لاتحصى، و كنّ كلّهن قيان ذوات جمال و أدب وعزفة وموسيقى فأسهمن في إثراء الشعر العربي بألوان طريفة و لعبن دوراً مهما في تاريخه بأرض الأندلس.

يكتب عبدالله العفيفي في كتابه حين ينهى الحديث عن الجواري و آدابهن:" و إذا استصفينا من ذلك شيئا فحسبنا أن نقول إنّ أولئك الجواري أتين في الشعر والغناء ببدع جديدة، فالرقة النادرة و الخفة الساحرة، و الأنوثة الظاهرة، وكل مامن شأنه أن يسترق عقول السامعين ويستخفّ ألبابهم كل ذلك كان أوضح ماعرف به جواري هذا العصر". [13]

الخلاصة

كذلك كان لهن دور مهم وشهرة ذائعة في الشعر الأندلسي الإسلامي و كان أكثر سيطرتهن في شعر الغزل والتغزل، وذلك نظراً لكثرة اختلاطهن بالرجال و الحكّام في مجالس اللهو والطرب و كن

يغنين ويرقصن في تلك المجالس ويثرين بذلك فنّ الغزل خاصة أكثر من سواه، فبناء على ذلك كانت قيمة أثمارهن تترفع بحذقهن في الشعر والغناء وحسن تأدّبهن وظروفهن.

لكنّ هؤلاء الجواري الأندلسيات وإن تمتعن بالحظوة عندالأندلسيين، فإنهن لم يدركن ما ادركت زميلا تهن في المشرق من مرتبة أدبية سامية. و الدراسة لأشعار هؤلاء الجواري والإماء مع أشعار الحرائر من الشواعر تؤدي القارى إلى اختلافات واضحة بينهن، و تعود اختلافاتهن في نظم الشعر و أغراضه إلى اختلاف ظروفهن الاجتماعية والطبقاتية، فنرى حين نوازن بين الجوارى والحرائر.

أوّلاً: أن الحرائر كن في المجتمع الأندلسي أكثر جرأة على استخدام موضوع الهجاء الشعري و الإفحاش مع السخرية فيه مثل ولادة، ونزهون ومهجة اللاتي قد اشتهرن في هذا الفن .

ثانياً: أن غزل الحرائر أكثر إباحية ومجوناً من غزل الجواري والقيان، كما لم يعرف عن الجواري الأندلسيات غزل بالأنثى كما عرف عن الحرائر.

ثالثاً: من حيث الكمية والكيفية كانت الحرائر لهن قصائد ومقطوعات مع أكثر عدداً و أوفره بيمنا كانت الجواري لهن أبيات ومقطوعات بأقل عدد من الحرائر.

لكن على كل ذلك كانت قيمة شعرهن الفنية في مجمله جيّداً وعند عامّة الناس و حكّامهم مقبولاً و محبوباً، ولهن في الشعر النسوي الأندلسي فضل لايُنسى و حظ لاينصرف النظرعنه.

الهوامش والمراجع

[1] - الدكتور محمد صالح الشنطى، في الأدب العربي القديم، ص:٢٢١، المجلد الثاني، دار الأندلس، 1426هـ.

[2] - محمد جميل بميم، المرأة في حضارة العرب، ص:259، دار النشر للجامعين، 1962.

[3] - أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، ص: 12، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق ، بيروت.

[4] - جودت الركابى، في الأدب الأندلسي، ص:٩٨-٩٩، دار المعارف، القاهرة، 1980.

[5] - S. Fitzgerald, In the Track of Moors, London,1905,p.112.

[6] - عبدالله العفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ص: 130، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر.

[7] - المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ص:133.

[8] - مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص:235-241، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.

[9] - الدكتورة سلمى سليمان علي، المرأة في الشعر الأندلسي، ص: 318، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

[10] - الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 242.

[11] - المرأة في حضارة العرب، ص:256.

[12] - أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: عبد الحميد، ص: 140، المجلد:6، مطبعة السعادة، مصر، 1949.

[13] - المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ص:40.